مَا لاَ يَسَعُ المُسْلِمُ جَهْلُهُ

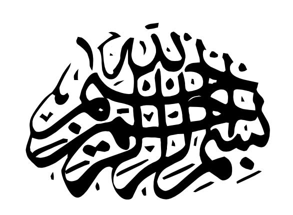
في

بابِ « القدَر »

مستلّ من شروح فضيلة الشّيخ

عبدالله بن عمر بن مرعي بن بريك العدني

-حفظهُ اللّه تعالى-



قال فضيلة الشّيخ عبدالله بن عمر بن مرعي بن بريك العدني في شرحه على رسالة [عقيدة السّلف وأصْحاب الحديث لأبي عُثْمان الصَّابُونِي (د12)] :

مسألة « خلْق أفعال العِباد »

ثمَ ذكرَ « خلْق أفْعال العِباد » ،وأنّها مخْلوقة للّه –عز وجلّ- بنص الكتابِ والسُنَّة ،لقولِه سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ [الصافات: 96] ،وقولِه سبحانه ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الرعد: 16] ،و« أعْمالُ العباد » من ذلك !

وقد خالفَ في ذلك « القَدَريَّة النُّفاة » ؛فزعموا أنَّ « أفْعال العباد » ليْسَتْ مخْلُوقة للّه فراراً منهم أن يكون للّه ومشيئَتِه أثراً في فِعْل العَبْد ؛فهم يَنْفونَ مشيئَة اللّه سبحانه وتعالى .

وفي مُقابِلِهم « الجَبْريَّة » -كما تقدَّم- يَزْعُمون أنَّ الإنسان كالرِّيشَة في مهبِّ الرِّيح ،ليسَ له إرادَة ومشيئَة .

وأهلُ السُنَّة في هذا وسَط –كما تقدَّم في دروسِ سابقَة- بيْن « الوعيديَّة » وبيْن « المرْجئَة » ،وبيْن « القدريَّة » وبيْن « الجَبْريَّة » .

ومسائِلُ « الإيمان » و« القَدَر » بيْنهما ارْتِباط ،ولهذا جمعَ بيْنها المؤلِّف –رحمه اللّه- ههنا وبيْن الآثار المرْويَّة فيها .

مسألة « الهدايَة »

وهكذا -كذلك- « الهدايَة » هدايتان :

1- هدايَة دلالَة وإرْشاد .
2- وهِداية توفيق .

فـ« هِداية الدّلالَة والإرْشاد » هذه يَمْلِكُها الأنبياء والرُّسل، وأتْباعُ الأنبياء .

وأمَّا « التَّوْفيق » فلا تكونُ إلاَّ من اللّه سُبْحانهُ وتعالى .

وبهِ تَجْتَمِعُ الأدلَّة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ ﴾ [الشورى: 52] أي تُرْشِد، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [القصص: 56] أي: تُوَفِّق .

فالمَنْفِي هو « التَّوْفيق »، والمُثْبَتْ هو « الإرْشاد » .

ولمَّا اخْتلطَتْ الهدايَتان على « الوعيديَّة » و« المُرْجِئَة » حصل عندهم الخلْط والضَّلال لعدمِ التَّفْريقْ بيْن الهدايَتيْن .

مسألة « الإرادة »، ومشيئَة اللّه »

وهكذا « الإرادة » إرادتان :

1- إرادَة شَرْعِيَّة، يُحِبُّها اللّه .
2- وإرادة كونِيَّة، وهو ما يقَع في هذا الكوْن من مشيئَتِه، ومشيئَتُهُ لا تكونُ إلاَّ كونِيَّة، قد يكونُ يُحِبُّها أو لا يُحِبُّها .

فكُفْرُ فِرْعون « إرادةٌ كونِيَّة » وليْسَتْ « إرادَة شرْعِيَّة » .

وإيمانُ غُلامَيْ الخَضِرِ وموسى « إرادةٌ شَرْعِيَّة كونِيَّة » لأنَّ اللّه يُحِبُّ لهما الإيمان ،ووقعَ الإيمان ،فهي « إرادَة شرْعِيَّة كونِيَّة » .

كُفرُ أبي لهب « إرادةٌ كونِيَّة » ،وكُفرُ –كذلك- أبي طالِب « إرادةٌ كونِيَّة » .

وإيمانُ بلال ،وأبي بكر ،وعمر ،والصَّحابَة –رضي اللّه عنهم- « إرادةٌ كونِيَّة شَرْعِيَّة » ،لأنَّ اللّه يُحِبُّها ويَرْضاها ،ووقعَتْ .

وإيمانُ من هو حيٌّ اليوم وهو ليسَ بمؤمن « إرادةٌ شَرْعِيَّة » وليسَت بـ« إرادة كونِيَّة » ،لأنَّها لم تقَعْ ! فإذا وقعَتْ صارَتْ « إرادَة كونِيَّة » .

لم يُفَرِّق « الوعيديَّة » من الخوارج والمعْتَزِلَة ،وفي مُقابِلِهم « المرْجِئَة » ،ولا « القدريَّة » ولا « الجبْرِيَّة » بيْن الإرادَتَيْن ،فحصلَ الضَّلال .

وأمَا أهلُ السُنَّة لأنَّهم يأخذون بأدلَّة الكتابِ والسُنَّة وُفِّقُوا للوسط الذي يُحِبُّهُ اللّه ،ففرَّقوا بمُقْتضى ما فرَّقَتْ الأدلَّة بيْن الإرادَتَيْن وبيْن الهدايَتَيْن .

مسألة « القدر »

وهكذا –كذلك- ما أشارَ إليْه –رحمه اللّه- من حديثِ ابن مسعود [1] ،وما يكون من أمر المخْلوق في بطْن أُمِّهِ ،والشَّاهد منه :أنَّهُ أشْكَلَ على « الوعيديَّة » و« المرْجِئَة » هذا الخبرْ ،لأنَّهُ على قاعدتِهم في باب « القدر » و« الإيمان » يُشْكِلُ جداً .

1- يعني حديث :« إن خلق أحدكم يَجْمع في بطن أمِّه أربعين يوماً ...» الحديث ،وهو عند البخاري (7454) ومسلم (2643) .

وأمَّا على طريقَةِ أهلُ السُنَّةِ والجماعةِ –أهل الإسْلام الصَحيح- فإنَّهم يُؤْمنون بـ« القدَر » ومراتِبه .

ومراتبُ « القدر » أرْبَعَة :

1- العلْم .
2- الكتابة .
3- المشيئَة .
4- الخلْق .

لا يَتِمُّ الإيمانُ بـ« القدر » حتَّى يَتِمّ الإيمان بهذه الأرْبَعَة ؛فإذا تمَّ الإيمانُ بهذه الأرْبَعَة بموجِب ما دلَّتْ عليْه أدلَّة الكتاب والسُنَّة تحقَّقَ الإيمان الصَّحيح بـ« القدَرْ » .

ولمَا خلَطَ « القَدَريَّة » و« الجبْريَّة » ،و« الوعيديَّة » و« المرْجِئَة » في هذه المراتِبِ الأرْبَعَة ،حصلَ عندهم الشكّ والتَّيْه والضَّلالْ ،ومنها هذا الحديث ؛ فهذا الحديث عندهم من المُشْكِلات .

وأمَّا عند أهلُ السُنَّة فهو واضِح ؛لأنَّهُ جاءَ في [صحيح مسلم] [1] في روايةٍ لحديثِ ابن مسعود ،وجاءَ من حديثٍ آخر شاهد له ؛أنَّ هذا العَبْد عَمِلَ بعَمل أهل النَّار فيما يبْدو للنَّاس ،وذاك عَمِلَ بعَملِ أهل الجنَّة فيما يبْدوا للنَّاس .

فهذه الأحاديث مع حديث ابن مسعود يُوَضِّح ويُجَلِّي أنَّ الأمرَ مكتْوب ؛قد كُتِب ،وأنَّ هناك شيء يكون من العامِل ،و« القدر سِرُّ اللّه سبحانهُ وتعالى » الذي كتبَهُ اللّه ،والذي عَلِمَهُ اللّه ،والذي شاءَهُ اللّه

1- (رقم: 2643) .

،لا يُنافِي إرادة المخْلوق وفِعْلِه واخْتِياره ،لأنَّ اللّه أثْبَتَ للمخْلوق اختْيار ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان: 3] **،ومع ذلك قال سبحانه** ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩ ﴾ [التكوير: 29] **،فمشيئَة العبْد تابعَة لمشيئَة اللّه التي هي تابعَة لِما قد أمرَ اللّه بكتابَتِه ،وما علِمَهُ قبْلَ أن يَكْتُبَهُ سبحانهُ وتعالى ،و« القدرُ سِرُّ اللّه سبحانه وتعالى » ،وهذا ليْسَ مُلْزِمٌ لهذا العبْد ،ولا مُدْخِلُهُ في « الجبْر » .**

لأجلِ عدم فَهْمِ هذه الأدلَّة قال « الجبْريَّة » بالجبْر ،وأنَّ العبْد كالريشَة في مهبِّ الرِّيح .

ولمَّا أثْبَتَ « القدريَّة النُّفاة » شِقّ وهو إرادة العبْد ،نفوا إرادة الربّ ،وكذَّبُوا بأمر « الكتابة » و« المشيئَة » ،بل وبعضهم حتَّى « العلْم السَّابقْ » ! وهذا –كذلك- ضلال ،بل وكُفْر ! من أنكرَ « العلْم » في « القدَر » كفَرْ .

لكن ،الصَّواب :أنَّ هذا كلَّهُ لا يُنافِي إرادة العبْد واختياره ،لماذا ؟ لأنَّ اللّه –عز وجلّ- الربّ الخالق العظيم ،الذي هو بكلّ شيءٍ عليم ،من كمال ربوبيَّتِه سبحانه وتعالى أنَّهُ لا يَخْفَى عليْهِ شيء من أمر خلْقِه ؛لو لم يكُنْ ذلك لَما كان رباًّ حقاًّ وصِدْقاً ! لكن لأنَّهُ الربّ حقاً وصِدقاً لا يَخْفَى عليْهِ من أمر عِبادِهِ شيء .

ويَضْربُ العُلَماء مَثَل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: 60] **لتقْريبِ المعْنى :إذا قال الولد :« فُلان من أبنائِي سيَعْصِينِي في أمْري ،والآخر سيُطِيعُنِي » فوقعَ بمِثْلِ ما وقعَ به هذا الأب ،هل يَصِحّ أن يَسْتَدِلّ الولد العاقّ**

العاصِي على عُقُوقِهِ ومَعْصِيَّتِه بخبَرِ الأب ؟ الجواب : لا ! لو فعلَ هذا لاسْتحَقَّ هذا الولد العُقُوبَة مرَّتَيْن :

1- العُقُوبَة الأولى : لأجلِ مَعْصِيَّتِه .

2- والعُقوبَة الثَّانِيَّة : لأجلِ اسْتِدْلالِه بما لا يَصِحّ الاسْتِدْلال به .

ولو قال صاحب العمل : « سيَخون في هذا الامتِحان فُلان ، وسيَنْجَح في الامتِحان فُلان » ؛ امتحَنَهُم امتِحان في أمانتِهم ، فنجحَ من قال ربُّ العمل وصاحبُهُ : « أنَّهُ سيَنْجَح » ، وفشَلَ الذي قال : « أنَّهُ يَفْشَلْ » .

هل يَصِحّ للفاشِل في الامتِحان الخائِن أن يَسْتَدِلّ بما سبقَ من كلامِ صاحبِ العمل ؟ الجواب : لا ! هل ألْزمهُ صاحب العمل حتَّى يقَعْ في الخيانة ؟ الجواب : لا ! كيْفَ علِم ؟ علِم بخِبْرَتِه ، وبدِقَّة نظَره ، وكذلك اطِّلاعِه ، ولم يكُن ذلك مُلْزماً لهذا الخائِن في الوُقوع في الخيانة ، فلو اسْتدلَّ بكلامِه لاسْتحقَّ العُقوبَة مرَّتَيْن :

1- المرَّة الأولى : لأجلِ خيانتِه .

2- والمرَّة الثَّانِيَّة : لأجلِ اسْتِدلالِه بما لا يَصِحّ الاسْتِدْلالُ به .

وهكذا « القَدَرِيَّة الجبْرِيَّة » ! لو استدلُّوا بـ« القَدَر » على فِعْل المعاصِي لاسْتحقُّوا العُقوبَة مرَّتَيْن ؛ وذكرَ الإمام ابن القيِّم -رحمه اللّه- أنَّهُ تناظرَ سُنِّيٌّ وجَبْرِي [1] ، فنصحَ السُّنِّي الجَبْري بتَرْك المعاصِي ، فقال : « إنَّما فعَلْتُها بقَدَر اللّه » ، فصَكَّهُ صَكَّة في وجْهِه ، فغَضِب ، قال : « لِما تَضْرِبُنِي ؟ » قال : بقَدَر اللّه » قال : « كذَبْت ! » قال : « وأنتَ كَذَبْت » ، فغَضِبَ من أجلِ الصَكَّة ، ولم يَغْضَب من أجل المعْصِيَّة ، لعِلْمِهِ أنَّ الصَكَّة ليس مجْبورٌ عليْها الذي صَكَّهُ بها

1- انظر [شفاء العليل في مسائِل القضاء والقدر والحكمة والتَّعْليل (ص139) ؛ ط : المعرفة] .

،فكذلك المعاصِي ليسَ مجبور عليْها –على الصَّحيح- لو أنصَفَ نَفْسَه ؛ لكنَّهُ لم يُنْصِف نَفْسَه ،فـ« القدر سِرُّ اللّه سبحانه وتعالى » .

ولذلك جاءَ في روايةٍ في الحديث :« فيما يبْدوا للنَّاس » يعني :يَظْهَر للنَاس أنَّ هذا الإنسان يَعْمل بعَمَلِ أهلِ الجنَّة ،لكن في الظَاهِر ؛ أمَّا في الباطِن هذا الإنسان عندهُ سبب يَجْعَلُهُ يَدْخُل النَّار في آخر الأمر .

مثلاً :من هذه الأسْباب عدم الصِّدْق ؛فلمَّا لم يكُنْ صادِقاً ،لم يُوَفَّقْ لحُسْن الخاتِمة ؛حُسْنُ الخاتِمة لا يُوَفَّقُ لها الإنسان بالتمَنِّي ،ولكن بالأعمال ؛ الأعمالُ الصَّالِحة هي التي تُعين الإنسان على حُسْن الخاتِمة ،الأعمال الصَّالحة هي التي تُعينُ الإنسان على الخروج من هذه الدُّنيا بالتَلَفُّظ بكلِمة التَّوْحيد .

ولهذا يُخْطِئْ بعض النَّاس حين يُلَقِّنُون الميِّت « لا إله إلاَّ اللّه » ،ويُلَقِّنونَهُ أسْئِلَة الملَكَيْن ،لو كان يَنْفَع لنَفِعهُ حين كان في الدُّنيا .

فهذه المسائِل ونحوها ،كلّها من هذا الباب ،لتُجَلِّي وتُوَضِّح هذا المعْنى .